حيفا

د. جونـــي منصـــور

سرايا حيفا

Saraya of Haifa

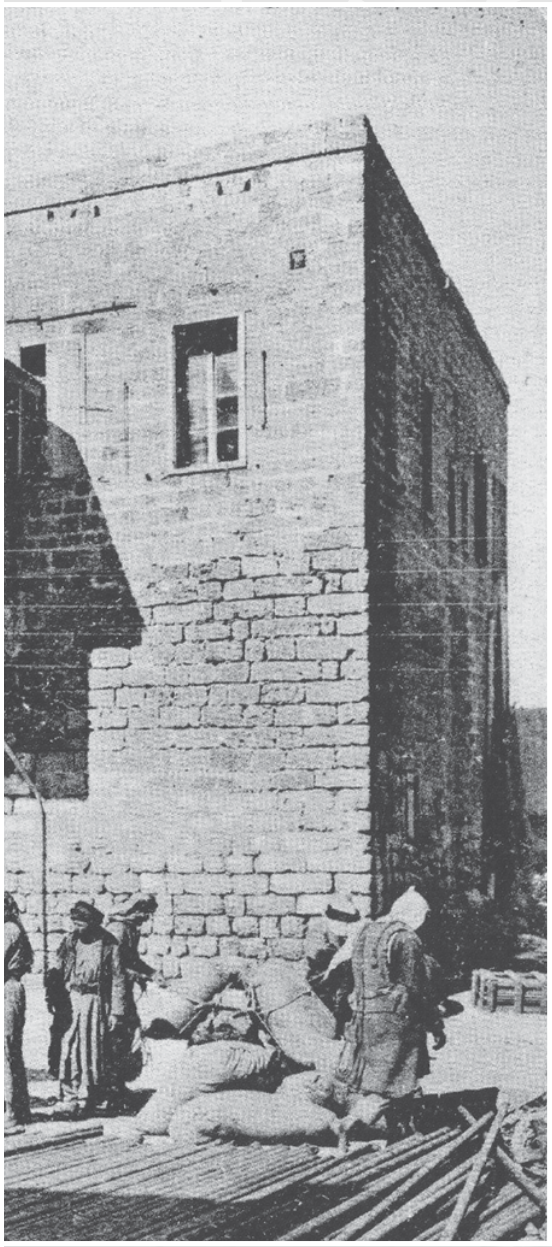

السرايا في حيفا بناها الشيخ ظاهر العمر الزيداني عندما بنى مدينة حيفا الجديدة في حدود العام 1761 م. وجعلها مقرًا لحكم المدينة وإدارة شؤونها، كما أنها استعملت لوظائف أخرى كسجن المدينة.

الى الأسفل: صورة لسرايا حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

«سرايـا»: الكلمـة واصلهـا ومعانيهـا

تنتشر في عدة مدن فلسطينية مبان تحمل اسم «السرايا»، ومن بينها مدينة حيفا. بعض من هذه المباني تم هدمه، وبعض آخر جرى أو سيجري ترميمه من قبل جهات رسمية وغيرها.

الى الأعلى: صورة لسرايا حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

سرايا حيفا

بالرغم من أن سياسات بلديات اسرائيل اليهودية أو بلديات المدن التي تمّ طرد العرب منها هدم المباني والمعالم

أما كلمة «سرايا» فتعني «دار الحكم». واستخدمت في الفترة العثمانية في بلاد الشام عمومًا، ومن بينها فلسطين. وأصل الكلمة «سرايا» من اللغة الفارسية ودخلت إلى العثمانية ثم التركية لاحقًا بمعنى «القصر». ولكون الدولة العثمانية حكمت المنطقة برمتها لفترة تزيد عن أربعة قرون تقريبًا دخل استعمال المصطلح «سرايا» في القاموس الحياتي للمجتمعات العربية وغيرها.

سـرايـا فلسطيـن

أُقيمت في الفترة العثمانية 9 سرايا في فلسطين، وهي: سرايا بئر السبع: وذلك في العام 1901. سرايا طبريا: أقامه حاكم منطقة الجليل الشيخ ظاهر العمر الزيداني. سرايا يافا: في ساحة الساعة وذلك في العام 1897. أما مبنى السرايا القديم فأنشأ في مطلع القرن الثامن عشر، وحولته حكومة اسرائيل إلى متحف يافا. سرايا القدس: ويعرف أيضًا باسم قصر الست طُنشُق أو تكية خاصكي سلطانة، والمبنى قائم في البلدة القديمة من القدس، ويعود تاريخ بنائه إلى نهاية القرن الرابع عشر حوالي العام 1391، واستعملته الحكومة العثمانية لاحقًا كمقر لحكمها في المدينة والجوار. سرايا الناصرة: مبنى أقامه الشيخ ظاهر العمر في حوالي العام 1740 وجعله أيضًا بيتًا لسكنه. سرايا عكا: أقيم في القرن السابع عشر بالرغم من أن نقشًا يشير إلى العام 1850. وتشير

الى الأعلى: صورة لسرايا حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

بعض المصادر التاريخية إلى أن ظاهر العمر بناه وأقام فيه لفترات متقطعة، حيث أنه جعل من عكا عاصمة او مقرًّا لحكمه. سرايا صفد: بنيت على يد ظاهر العمر ثم جعلته الحكومة العثمانية مقرًّا لإدارة المدينة والقضاء. سرايا بيسان: شُيّد في نهاية القرن التاسع عشر حوالي العام 1890 واستخدمته الحكومة العثمانية لإدارة المدينة وقرى القضاء. سرايا حيفا، وهذا ما سنأتي على شرحه وتفصيله. وللإشارة أن كل مباني السرايا ما يزال قائمًا إلا مبنى سرايا حيفا، حيث هدمته السلطات الاسرائيلية ضمن مشروع «شيكمونا» في العام 1949 وملخصه (أي المشروع) هدم كل البلدة القديمة ما عدا المباني الدينية والعامة، وذلك لمنع عودة العرب ولشق طريق يربط بين شرق المدينة وغربها، ولتجديد معالم المدينة لتكون يهودية وليست عربية.

السـرايـا في حيفـا

بناها الشيخ ظاهر العمر الزيداني عندما بنى مدينة حيفا الجديدة في حدود العام 1761م. وجعلها مقرًّا لحكم المدينة وإدارة شؤونها، كما أنها استعملت لوظائف أخرى كسجن المدينة. ولمّا وقعت حيفا تحت الاحتلال المصري أثناء حملة ابراهيم باشا على بلاد الشام في العام 1831 كانت دار السرايا بحاجة إلى ترميم فبادر ابراهيم باشا إلى ذلك. وتكون مبنى السرايا من طابقين أثنين مع طابق تحت الأرض. واستعمل الطابق تحت الأرض كسجن ومعتقل للمدينة. في حين استعمل الطابق الأرضي مكاتب للموظفين الذين أشرفوا على إدارة المدينة ومرافقها المختلفة مثل الجمارك والإدارة المالية والبلدية. وبقي الحال هكذا إلى أن بدأت المدينة تشهد حالات من التوسع والامتداد وبالتالي إلى ضرورة تخصيص مبان أخرى لأمور إدارية متخصصة، بما فيها إدارة البلدية مثلا.

وكان السرايا في الجهة الشرقية من المدينة، قريبًا من الميناء القديم لحيفا، وقريبا من شاطئ البحر. واعتبرت السرايا مركزًا مهمًا في سياق الحياة اليومية العامة. وانتشرت أمام السرايا ساحة كبيرة نسبيًا، وامتدت حتى بلغت أمام جامع الجرينة الذي شيد لاحقا(شيد هذا الجامع بعد انهاء حكم الشيخ ظاهر العمر الزيداني، ولذلك سماه القبطان حسن باشا الجزايرلي «جامع النصر الكبير» وهو أي الجزايرلي اقام هذا الجامع). لهذا، نلحظ أن مركز بل عصب الحياة في المدينة ذات الأسوار كان قريبًا من دار السرايا. فالساحة كانت مركزًا للقاء أهالي المدينة وأولئك الوافدين إليها من

القرى المحيطة، وكذلك لكل الفعاليات الأخرى.
وعيّنت الدولة العثمانية قائمقامًا لها في حيفا، وهو عمليًا حاكم المدينة ومقره في السرايا. وتولّى القائمقام مهمة إدارة مجلس إدارة القضاء الذي تألف من ممثلي المدينة والجوار. وكانت تُعقد في السرايا جلسات هذا المجلس. كذلك إنعقدت في السرايا جلسات المجلس القضائي للمدينة والقضاء. ولما انتهى الحكم العثماني – التركي عن حيفا في العام 1918 جعل الانجليز من دار السرايا مقرًّا لحكمهم إلى أن شيّدوا مبنى آخر مقابل دار البلدية الحالية في طرف الهادار(حيث كان مقر وزارة الداخلية إلى نهاية القرن الماضي قبل انتقالها إلى مبنى الصاروخ).

وكانت الدولة العثمانية ثم البريطانية تعين قائمقاما للمدينة من بين العائلات المعروفة في المدينة أو من خارجها، له نصيب في معرفة الإدارة والعلاقات العامة، لكونه يمثل الدولة في المؤسسات والهيئات الرسمية والعامة.

موظفــو السرايــا

من بين الذين تولوا منصب مدير ناحية ثم منصب قائمقام في الفترة العثمانية:
عبدالله بك الصلاح وهو من عائلة الصلاح المشهورة في حيفا وذات النفوذ الكبير والأملاك العديدة وكان لهم حيًّا كاملاً في الحارة الشرقية. وصالح بك حسين عبد الهادي، ومحمد نعمت أفندي، ومحمود بك الحلبي، وكامل بك بدرخان، ونظام الدين محمد شريف، أما في فترة الانتداب البريطاني فتمّ تعيين: مستر سيمس، ومستر كوبرمان، متري فرّاج، عز الدين الشوا في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، داود كارمي في منتصف الثلاثينيات، خلوصي الخيري في أواخر الثلاثينيات، بديع ميرزا بشروئي وكان والده سكرتير حاكم حيفا البريطاني بعد احتلالها على يد الجيش الانجليزي، حلمي الحسيني في مطلع الأربعينيات، ورفيق بيضون وهو آخر قائمقام لحيفا، وكان قد أشغل الوظيفة نفسها في نهاية العشرينيات من القرن المنصرم.

مصيـــر الســرايـــا

يبدو جليًّا أنها لم تعد تؤدي مهامها في فترة الانتداب البريطاني، خاصة في منتصف الثلاثينيات، فتم بناء دار جديدة مقابل دار بلدية حيفا استخدمت كمكاتب حكومية لقضاء حيفا. أما السرايا فاستخدم لأغراض اخرى في نهاية فترة الانتداب البريطاني. وتمّ هدمه كما اشرنا سابقا بقرار من بلدية حيفا اثناء رئاسة شبتاي ليفي، وبإشراف آبا حوشي الذي أصبح رئيسا لاحقا للبلدية. وتمّ هدم المبنى تمامًا بحيث لم يبق منه أي أثر. وأقيم على جزء من أرضه حديقة عامة، ثم دمرت الحديقة وأقيم عليها دار البريد المركزي لحيفا واللواء الشمالي. أما الموقع الذي كان عليه السرايا تحديدًا فقد قررت بلدية حيفا والحكومة الاسرائيلية إقامة مبنى الدوائر والمكاتب الحكومية، وتمّ افتتاحه في بداية القرن الحادي والعشرين ويُعرف باسم «بناية الصاروخ». وهذه البناية البرج عبارة عن مكاتب لكافة المؤسسات الحكومية في حيفا والشمال. أما الشارع القريب منها والمواجه لبنك ياهاف ولقاعة جامع الجرينة الجديدة فما يزال يحمل اسم «السرايا». زال مبنى السرايا وبقي الاسم للدلالة على انه كان هنا مبنى تاريخي وأثري. وبالرغم من أن سياسات بلديات اسرائيل اليهودية أو بلديات المدن التي تمّ طرد العرب منها هدم المباني والمعالم العربية والاسلامية والعثمانية، إلا أن كافة مباني السرايا بقيت قائمة في تلك المدن إلا في حيفا. حيفا، التي يتشدق ربابنتها بأنها مدينة تعايش شهدت وتشهد عمليات إبادة للمرافق العمرانية العربية التاريخية في وادي الصليب وحي محطة الكرمل ووادي روشميا والحليصا ووادي النسناس، بذريعة تجديد المدينة، علمًا أن كل المدن التاريخية في العالم تحافظ على المبانَي التاريخية فيها وتستفيد منها كموروث لسياحي بوجه خاص. هذا الأمر غير قائم في اسرائيل على الغالب، لأن سياسات اسرائيل عبر العقود السبعة الماضية معروفة للجميع. واستنادًا إلى هذه السياسات فإن نسبة كبيرة جدًّا من المباني العربية في المدن قد أزيل عن وجه الأرض واستبدل بمبان اسرائيلية، بهدف طمس المعالم وإظهار معالم أخرى سيعتقد الجمهور انها الأصل. أما بالنسبة للسرائيا في حيفا، وبناء برج الصاروخ مكانه فهو للدلالة على أن اسرائيل هي وريث شرعي للحكم الانتدابي البريطاني والعثماني منة قبله. ويا لسخرية القدر.

الى الأعلى: صورة لسرايا حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

تم بناء دار جديدة مقابل دار بلدية حيفا استخدمت كمكاتب حكومية لقضاء حيفا. أما السرايا فاستخدم لأغراض اخرى في نهاية فترة الانتداب البريطاني. وتمّ هدمه كما اشرنا سابقا بقرار من بلدية حيفا اثناء رئاسة شبتاي ليفي، وبإشراف آبا حوشي الذي أصبح رئيسا لاحقا للبلدية. وتمّ هدم المبنى تمامًا بحيث لم يبق منه أي أثر.

ساحة الحناطير ساحتنا

Sahat al-Hanatir

الى الأعلى: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

تتميز الحركة الثورية الجارية في عدد من الدول العربية باتخاذ شباب الثورة ميادين العواصم والمدن الكبرى ساحات فسيحة للتعبير عن آرائهم ومواقفهم تجاه حكومات بلادهم. ورأينا خير نموذج على ذلك «ميدان التحرير» في القاهرة، وحاليًا «ميدان التغيير» في صنعاء العاصمة اليمنية، و«ميدان اللؤلؤة» في المنامة عاصمة البحرين. لقد حققت ثورة شباب ميدان التحرير في القاهرة نجاحًا باهرًا ومنقطع النظير في مثابرة الشباب حتى تحقيق أهم وأبرز مطلب لهم وهو إسقاط نظام الطاغية حسني مبارك وإلقاء رموز النظام في غياهب السجون وتقديم عدد لا بأس به منهم إلى المحاكم لمقاضاتهم في قضايا الفساد الإداري والمالي والأخلاقي، والأهم من ذلك، بل فوق كل ذلك، اتهامهم بإفقار الشعب المصري. لقد أثبت شباب ميدان التحرير أنهم قادرون على إحداث تغيير وتحول في نظام حكم بلادهم، وكذا يحذو حذوهم شباب اليمن في ميدانهم الذي يحمل

الى الأسفل: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

ساحة الحناطير

اسم ميدان التغيير. التحولات في هذه الميادين تثير فينا تساؤلات كثيرة حول ساحة الحناطير، وهي الميدان الأكثر شهرة في حيفا زمن الانتداب البريطاني خاصة.
في حقيقة الأمر ان ساحة الحناطير ليست بحجم ميداني التحرير والتغيير إلا أنها تحمل من المخزون التاريخي الشيء الكثير والذي يتوجب علينا معرفته وكشفه للقراء الكرام.

عُرفت الساحة التي تم تجهيزها عند بوابة يافا بـ «ساحة الخمرة». وبقي هذا الاسم الرسمي حتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي عندما حولته بلدية حيفا إلى «ساحة باريس».

ساحــة خــارج اســوار حيفــا

لم تكن هذه الساحة قائمة عندما بنى الشيخ ظاهر العمر مدينة حيفا الجديدة داخل الأسوار قبل قرابة 250 عامًا. ولكن بدأت تتكون هذه الساحة خارج الأسوار في الجهة الغربية من المدينة ذاتها. وجرى ذلك في أعقاب تزايد عدد سكان حيفا الجديدة داخل الأسوار، بحيث لم تعد المدينة تتحمل الضغط السكاني الحاصل فيها. وبما أن

الى الأعلى: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

الى الأسفل: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

الألمان الهيكليين (التمبلريين) قد أقاموا لهم حارة سكنية بعيدة ما يقارب الكيلومتر ونصف تقريبًا عن حيفا الجديدة، قوي الدافع لدى أهالي حيفا للخروج خارج الأسوار والشروع ببناء بيوتهم ومصالحهم التجارية.

وفي واقع الأمر أن عددًا من أهالي حيفا وقبل وصول الألمان بقليل أقاموا لهم بعض البيوت القريبة من السور الغربي للمدينة، ولكن لم يذهبوا بعيدًا، لأن القانون العثماني كان يمنع البناء خارج الأسوار. ولكن يبدو أن تسهيلات تنظيمية اتبعها حاكم حيفا مقابل بعض أكياس من القروش.

كانت الحاجة إلى ربط الحي الالماني بطريقة ما مع حيفا الجديدة، ليست لحاجة الألمان إلى خدمات وحاجات، إذ أنهم سدّوا حاجاتهم بأنفسهم، إنما الحاجة هي لتسهيل عملية الانتقال من غرب المدينة إلى شرقها ومن ثم إلى الناصرة وعكا. لهذا بات من الضروري تجهيز ساحة لعربات النقل، والتي كانت تجرُّها الدواب على مختلف أنواعها.

ولهذا خُصصت قطعة أرض عند بوابة يافا أو كما تعرف بـ «البوابة الغربية».

الاسم الأصلي: ساحة الخمرة

عُرفت الساحة التي تم تجهيزها عند بوابة يافا بـ «ساحة الخمرة». وبقي هذا الاسم الرسمي حتى نهاية الخمسينيات من القرن الماضي عندما حولته بلدية حيفا إلى «ساحة باريس». أما الاسم فيعود إلى عائلة الخمرة العريقة في حيفا والتي امتلكت قطعة الأرض الواقعة في

الى الأعلى: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

الى اليسار: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

الجهة الغربية من حيفا خارج الأسوار. وبدأت عملية تنظيم نقليات بواسطة عربات الخيول ودواب أخرى من الساحة إلى مختلف جهات المدينة، وخاصة إلى الجهة الغربية. وقام الألمان بمد الطريق الرابط بين حيّهم «الكولونية الالمانية» وبوابة يافا.

القطـــار فـــي الشـــرق والحناطيـــر فـــي الغـــرب

بعد وصول القطار الحجازي إلى حيفا في عام 1905 جرى تطوير سريع لحركة ونشاط العربات في الساحة المذكورة. وخاصة أن نقلة نوعية وجريئة في مجال البناء بدأت تشهدها مدينة حيفا في الاتجاه الغربي. فتم بناء عشرات المحلات التجارية في محيط ساحة الخمرة، وارتفع عدد الدكاكين، خاصة التي كانت تبيع الأقمشة والملبوسات الجاهزة والأحذية. وكذلك بدأت تظهر بيوت سكنية قريبة من الساحة وعلى امتداد طريق يافا.

كان وصول القطار إلى حيفا حدثًا مركزيًا في تطوير مرافق كثيرة في المدينة من اقتصادية واجتماعية ودينية وتعليمية، وممّا لا شك فيه أن هذا المشروع الضخم لعب دورًا مركزيًا في تحسين الحالة الاقتصادية لحيفا. وبالتالي نشطت الحركة التجارية وتحسّنت الحالة العامة للمدينة.

وبدأت تظهر الحناطير أي العربات التي تجرها الخيول، وتحسن نوع الحناطير وخاصة المُخصّص لنقل الركاب أو المسافرين من حيفا داخل الأسوار إلى الأحياء الغربية وستيلا مارس والحي الألماني وجواره.

كان وصول القطار إلى حيفا حدثًا مركزيًا في تطوير مرافق كثيرة في المدينة من اقتصادية واجتماعية ودينية وتعليمية، وممّا لا شك فيه أن هذا المشروع الضخم لعب دورًا مركزيًا في تحسين الحالة الاقتصادية لحيفا. وبالتالي نشطت الحركة التجارية وتحسّنت الحالة العامة للمدينة.

الكتيبـــة الهنديـــة تدخـــل حيفـــا عبر ساحـــة الخمـــرة

في الثالث والعشرين من شهر أيلول 1918 دخلت الكتيبة الخامسة عشرة

ساحة الحناطير

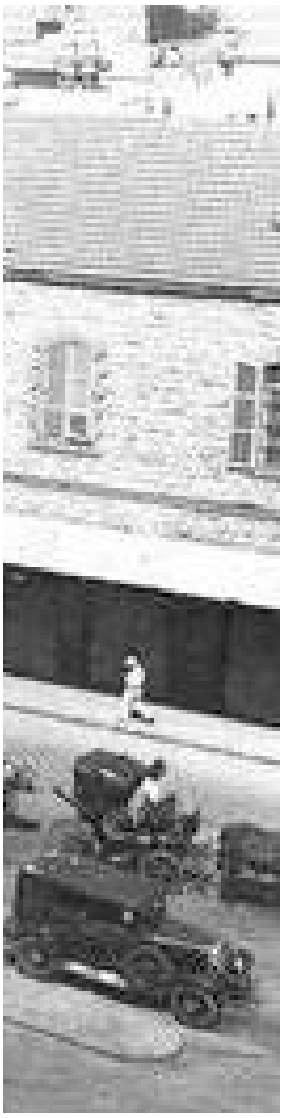

الى اليسار: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

في الصفحة المقابلة: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

لم تكن الساحة مخصصة لأغراض تجارية فقط، إنما شهدت هذه الساحة مظاهرات ومسيرات سياسية واحتجاجات صاخبة للغاية. ففي عام 1920 انطلقت مسيرة صاخبة جدًا ضد السياسة البريطانية تجاه فلسطين وتفضيلها اليهود،

من الجيش البريطاني وكلها من الجنود الهنود، مدينة حيفا في استعراض كبير عبر ساحة الخمرة إلى البوابة الغربية أو بوابة يافا، ثم إلى أزقة وطرقات وأسواق حيفا الجديدة داخل الأسوار، لتُعبّر عن سيطرتها الكاملة على حيفا والمناطق المجاورة لها، وانتهاء الحكم العثماني بعد أربعة قرون ونيف.

الاسم الشعبي: ساحة الحناطير

مع انتشار الحناطير في حيفا، وتركيزها في ساحة الخمرة، بدأت الساحة تتبنى اسمًا جديدًا لها ألا وهو «ساحة الحناطير». وهو الاسم الأكثر شيوعًا. وكان ذلك مع بداية الانتداب البريطاني. وشهد طريق يافا نشاطًا عمرانيًا مباركان حيث ازداد عدد المنازل والمحلات التجارية بصورة مكثفة، وتحول هذا الشارع على طوله، أي إلى نهايته عند مقابر الجيش البريطاني إلى شارع يعج بالحركة البشرية، حتى غدت حيفا وكأنها مقيمة في هذا الشارع فقط. ودرج اسم «ساحة الحناطير» على ألسنة الناس.

شارع مار الياس المجاور

شُيّدت مبان كثيرة في شارع مار الياس، وفي معظمها ملك للرهبان الكرمليين، وحولت إلى محلات تجارية في الطابق الأرضي وإلى مكاتب وعيادات طبية في الطوابق العليا. وتركز هذا النوع من الخدمات في هذا الشارع تقريبًا. مما ساهم مساهمة كبيرة في زيادة أعداد رواد

ساحة الحناطير، وبالتالي إلى زيادة عدد الحناطير. ومن جهة أخرى تمّ البدء بمشروع إقامة الميناء وتجفيف مساحات شاسعة من شاطئ البحر في موقع شارع الملوك الحالي(شارع هعتصمؤوت). وهذا المشروع في نهاية العشرينيات ومطلع الثلاينيات ساهم في نشر اسم ساحة الحناطير وتحويلها إلى أحد معالم حيفا، بل أهم معلم فيها، معروف لأهالي المدينة وللأهالي القادمين من قرى الجليل إلى حيفا.

السيارة تنافس الحنطور

ومع انتشار استعمال السيارات وازدياد عدد الشوارع المرصوفة في حيفا، وانتشار الأحياء السكنية وازدياد الخدمات في حيفا، لم يعد الحنطور قادرًا على توفير كامل الخدمات ولمسافات بعيدة، فبدأت سيارات الأجرة(التاكسي) تحتل أمكنتها في الساحة، وبقي الحنطور مستعملاً ولكن لمسافات قليلة فقط. وبدأت الحناطير بالاختفاء شيئًا فشيئًا حتى نهاية الثلاثينيات تقريبًا. ومع ازدياد الضغط البشري في أسواق حيفا وطريق يافا والشوارع المجاورة، اشتد الزحام في شوارع المدينة، فقررت بلدية حيفا نقل محطات الباصات وبعض محطات التاكسيات إلى شارع الملوك وعلى امتداد شارع يافا اعتقادًا منها أن ذلك سيخفف من حِدّة الأزمة.

المظاهرات والمسيرات السياسية في ساحة الحناطير

لم تكن الساحة مخصصة لأغراض تجارية فقط، إنما شهدت هذه الساحة مظاهرات ومسيرات سياسية واحتجاجات صاخبة للغاية. ففي عام 1920 انطلقت

الى الأعلى: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

ساحة الحناطير

مسيرة صاخبة جدًّا ضد السياسة البريطانية تجاه فلسطين وتفضيلها اليهود، من ساحة الخمرة مخترقة شوارع وأزقة البلدة في طريقها إلى الساحة القريبة من جامع الجرينة. ولكن الجنود الانجليز تلقوا أوامر من قيادتهم بإطلاق النار على المتظاهرين فسقط شهيدان من أبناء حيفا هما الشاب ادوار منصور والمُسن مصطفى العجوز، مما ألهب مشاعر الأهالي الذين عبروا عنها بمزيد من المظاهرات والاحتجاجات في ساحة الخمرة.
ولما انطلقت حركة عز الدين القسّام من حيفا، حولت السلطات الأمنية البريطانية الساحة إلى معسكر أو ثكنة لمراقبة وتفتيش كل القادمين إلى حيفا من الفلسطينيين.
وشهدت الساحة سلسلة من الأحداث القاسية في العام 1948، حيث اشتبك المقاومون العرب مع عناصر من عصابات الهاغاناه قامت بمهاجمة محلات ومتاجر عربية في الساحة.

الساحة تودع أبنائها في نيسان 1948 رغمًا عنهم

أثناء قيام عناصر من عصابة الهاغاناه وغيرها من العصابات اليهودية بمهاجمة الأحياء العربية وتهجير سكانها، جرى تجميع أعداد كبيرة من الشباب العربي الفلسطيني في ساحة الحناطير، وتم إحضار حافلات وشاحنات نقلت عددًا كبيرًا من الشباب إلى البوابة الشرقية، أو إلى بوابة الميناء ومنها إلى البواخر التي كانت بانتظارهم. نقلوا بواسطتها خارج الوطن إلى لبنان ضمن مؤامرة تفريغ حيفا وترحيل سكانها. وهكذا ودعت الساحة شباب حيفا رغمًا عنهم، وتحت سطوة سلاح وإرهاب الهاغاناه وتواطؤ حكومة وجيش الانتداب البريطاني.

نهب المحلات التجارية والمكاتب

ولم تسلم المحلات التجارية العامرة بالبضائع والمنتجات في ساحة الحناطير من أيدي لصوص الهاغاناه الذين عاثوا فيها فسادًا، ونهبًا وسلبًا. حتى العيادات الطبية والمكاتب التابعة لمحامين ومهندسين لم تسلم، بل نُهبت بعد أن أُجبر أصحابها على تركها وترك المدينة أو طردهم بالقوة والعنف. وتشهد عشرات الصور الفوتوغرافية على حجم المأساة التي تعرضت لها الساحة والمحلات التجارية وسكانها وأصحاب المحلات فيها.

«ساحة باريس» وأي باريس هذه!!

ضمن مشروع تهويد المواقع العربية في حيفا، إضافة إلى هدم عشرات بل مئات المحلات والبيوت في البلدة داخل

الأسوار، شهدت ساحة الحناطير مسلسلاً من الهدم والطمس للمعالم العربية، فاختفت عن وجه البسيطة مبانٍ كثيرة ولم تعُد قائمة أبدًا. ولم تكتفِ بلدية حيفا بذلكَ، إنما طبقت سياسة حكومة بن غوريَون، ألا وهي «إذا هدمت المكان، فغير اسمه أيضا لتختفي آثاره المادية والثقافية حتى لا يمكن معرفة هوية هذا المكان». وهكذا انتهزت بلدية حيفا فرصة مد مترو بين ساحة الحناطير ومركز الكرمل على يد شركة فرنسية، فغيرت الاسم من «ساحة الخمرة» (الاسم الرسمي) إلى ساحة باريس. وأي باريس هذه!! لا صلة للمكان بباريس، وإنما الهدف هو إخفاء المعالم العربية عنه.

ساحة الحناطير ساحتنا إلى الأبد

وبالرغم من تغيير الاسم، وتبني اسمًا مستوردًا من الخارج ولا صلة له بالمكان، وبالرغم من اختفاء يافطات «ساحة الخمرة» أو «ساحة الحناطير» والتحولات التي تشهدها حيفا في بنيتها العمرانية، إلا أن أهالي حيفا والجليل والمثلث قاطبة يستعملون اسم «ساحة الحناطير» على الغالب، ويؤكدون أنهم لن يتنازلوا عن الاسم العربي الذي يعني لهم التراث والحضارة والتاريخ وتكوين المدينة.

وهكذا، ستبقى ساحة الحناطير- ساحة الخمرة- ساحتنا، فيها تاريخنا وذاكرتنا وذكريات الآباء والأجداد، وملتقى الأحباب والخلان، إنها معلم تاريخي لن يُفارق ذاكرتنا ولا وجودنا ولا هويتنا. هذه ساحتنا ولا بديل عنها.

الى الأعلى: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين. مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

الى اليمين: صورة لساحة الحناطير تعود الى اوائل القرن العشرين. مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

إنما طبقت سياسة حكومة بن غوريون، ألا وهي «إذا هدمت المكان، فغير اسمه أيضا لتختفي آثاره المادية والثقافية حتى لا يمكن معرفة هوية هذا المكان». وهكذا انتهزت بلدية حيفا فرصة مد مترو بين ساحة الحناطير ومركز الكرمل على يد شركة فرنسية، فغيرت الاسم من «ساحة الخمرة» (الاسم الرسمي) إلى ساحة باريس.

بوّابات المدينة

City's Gates

عمليًا كانِ لحيفا بوابتين، واحدة تتجه نحو الغرب وتعرف باسم «البوابة الغربية» ويطلق عليها الأهالي حتى يومنا هذا «بوابة يافا». لكونها تتجه نحو مدينة يافا، التي - اي يافا - كانت إلى فترة غير بعيدة من مدن فلسطين المهمة اقتصاديًا، إذ فيها ميناء هام اعتُبر مرّة في الماضي أحد الموانئ المهمة.

لندخــل إلى مدينتنــا

كان الدخول إلى المدن القديمة، أو تلك التي بنيت حتى القرن التاسع عشر تتم عبر بوابات، انتشرت على طول أسوار تلك المدن. فلكل مدينة بواباتها، والتي تم بنائها خلال عملية بناء أسوار المدينة. ومن جهة أخرى فلكل مدينة عدد من البوابات يختلف بين مدينة وأخرى. أما مدينتنا حيفا فبلغ عدد بواباتها أثنتين فقط، وفقا لما بين ايدينا من مراجع ومستندات تاريخية تبين ذلك، يضاف إليها بوابة أخرى لم يستعملها الأهالي إلا بما له علاقة بالميناء القديم.

حول هذا الموضوع سيتركز مقالنا هذا، بعد ان استوفينا المادة المتعلقة بأسوار المدينة وأبراجها. فحيفا التي بناها ظاهر العمر الزيداني في العام 1761 ومدَّ حول أسوار ليست ذات مناعة وحصانة أسوار عكا، لكون حيفا مدينة صغيرة من حيث المساحة والدور المتوخى أن تلعبه. ولكن

الى الأعلى: صورة لاحدى بوابات حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

بما أن للمدينة أسوار تحيط بها، إذ من الواضح أن تكون لها بوابات، وأقله بوابتان، وهكذا كان.
فعمليًا كان لحيفا بوابتين، واحدة تتجه نحو الغرب وتُعرف باسم «البوابة الغربية» ويطلق عليها الأهالي حتى يومنا هذا «بوابة يافا». لكونها تتجه نحو مدينة يافا، التي – اي يافا – كانت إلى فترة غير بعيدة من مدن فلسطين المهمة اقتصاديًا، إذ فيها ميناء هام اعتُبر مرّة في الماضي أحد الموانئ المهمة. أما البوابة الشرقية لمدينة حيفا، والتي يُطلق عليها الأهالي «بوابة عكا»، فلكونها تتجه نحو مدينة عكا الواقعة إلى الشمال من حيفا. وعكا ذات أهمية كبيرة في التاريخ الفلسطيني خاصّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ أنها كانت مركز حكم الولاية وفيها ميناء تاريخي كبير اعتبر لفترة ما بوابة فلسطين نحو العالم.

البوابـــة الغربيـــة

وهي الواقعة عند طرف السور الغربي للمدينة، وعُرفت كما اشرنا سابقًا ببوابة يافا، وما زال الشارع المُتفرّع منها يحمل الاسم ذاته إلى يومنا هذا. وكانت هذه البوابة تفتح بابها على ساحة المدينة الكبيرة نسبيًا، بمفاهيم ذلك الوقت، وبمقاييس حيفا في تلك الأيام. وعُرفت الساحة التي تجاور البوابة الغربية بـ «ساحة الخمرة»، نسبة إلى أصحاب الأرض التي فيها أو إلى جوارها امتدت هذه الساحة. وعائلة الخمرة من العائلات العريقة في حيفا، ولعدد من أفرادها دور تاريخي بارز في خدمة وقيادة بعض مؤسسات المدينة، ومساهمات جليلة في المشهد الحياتي اليومي للمدينة وسكانها. ولكن عندما ادخلت العربات التي تجرها الخيول نهج أهالي حيفا إلى تسميتها بـ «ساحة الحناطير». وازداد عدد الحناطير في المدينة مع ازدياد عدد السكان ومع اتساع العمران سواء إلى الجهة الغربية للمدينة أو الشرقية. ووفرت الحناطير خدمات النقل، سواء كان نقل المسافرين أو البضائع من منطقة البلدة القديمة داخل الأسوار وفي محيطها إلى باقي الأحياء المنتشرة في المنطقتين التي اشرنا إليهما، اي إلى الغرب وإلى الشرق. وبقيت الحناطير تُقدّم الخدمات حتى مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، عندما بدأ عددها بالتراجع إثر دخول خدمات سيارات الأجرة – التاكسيات وسيارات الشحن ونقل البضائع إلى كافة المناطق، بالإضافة إلى أن المدينة اتسعت بصورة كبيرة وازداد عدد سكانها خلال فترة الانتداب البريطاني، وازداد عدد السيارات الخاصة والعامة، مما أدى إلى تنازل كثيرين عن خدمات الحناطير وعربات النقل. وهكذا بدأت الحناطير تختفي تدريجيا من المشهد اليومي للمدينة، إلى أن لم يبق منها اي حنطور أو عربة مع نهاية الانتداب البريطاني. ومن جهة أخرى شكلت البوابة الغربية نقطة لقاء بين أهالي المدينة وبين الوافدين إليها سواء بالنقل البري أو البحري، عبر الميناء الحديث الذي أقيم في المدينة إلى جانب منشآت كثيرة في الجهة الغربية من المدينة.

الى الأسفل: صورة لاحدى بوابات حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

على الصفحة المقابلة: صورة لاحدى بوابات حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

بوّابات المدينة

البوابة الشرقية لمدينة حيفا، والتي يُطلق عليها الأهالي «بوابة عكا»، فلكونها تتجه نحو مدينة عكا الواقعة إلى الشمال من حيفا. وعكا ذات أهمية كبيرة في التاريخ الفلسطيني خاصّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، إذ أنها كانت مركز حكم الولاية وفيها ميناء تاريخي كبير اعتبر لفترة ما بوابة فلسطين نحو العالم.

الى الأسفل: صورة لاحدى بوابات حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

واشارت ماري روجرز مؤلفة كتاب الحياة اليومية في فلسطين والذي ترجمه إلى العربية الاستاذ جمال أبو غيدا ابن حيفا المقيم حاليا قسريا في الأردن والذي – أي الكتاب – صدر قبل اسبوعين، إلى أن «البوابة الغربية مبنية من الحجر والقسم المتحرك منها عبارة عن ألواح حديدية وخشبية».

وشهدت منطقة البوابة الغربية نشاطًا بشريًا جيدًا وملحوظًا، إذ انتشرت عندها سواء في الساحة أو داخل الأسوار في الجهة الغربية. وكان الداخل من البوابة الغربية يسير في عدد من الأسواق منها سوق الأبيض وسوق الشوام، ويلحظ كنيستي الروم الارثوذكس وكنيسة الروم الكاثوليك. وعُرفت الجهة الغربية للمدينة للداخل من بوابتها الغربية باسم «حارة الكنايس». وما زال عدد كبير من الأهالي يستعمل هذه التسمية إلى يومنا هذا، فيما لو أضفنا كنيستي اللاتين القديمة والمارونية القائمة على بعد قليل من ساحة الخمرة – ساحة الحناطير.

كان الخروج من البوابة الغربية يُفضي إلى شارع يافا ومنه يتابع المسافر سيره أو سفره باتجاه الجنوب الغربي حتى يافا.

البوابــة الشرقيــة

وهي التي تقع إلى الجهة الشرقية من المدينة التي بناها ظاهر العمر الزيداني. ومنها كان يُفضي المسافر إلى

الى الأسفل: صورة لاحدى بوابات حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

الطريق المؤدية إلى الناصرة وعكا في الأساس. وما أن يخرج المسافر من هذه البوابة حتى يواجه المقبرة الاسلامية، والتي حملت لاحقًا اسم مقبرة الاستقلال.

واعتبرت البوابة الشرقية ومحيطها الممتد حتى سكة الحديد الحجازية أي المحطة الشرقية لحيفا وشارع فيصل وشارع العراق وأطراف حي وادي الصليب عصب الحياة الاقتصادية للمدينة وللمنطقة. وانتشرت عند البوابة الشرقية المحلات التجارية والعنابر (المستودعات والمخازن الكبيرة) التي كان يخزن فيها كميات من الحبوب على مختلف أنواعها والقادمة عبر القطار من بلاد حوران ومرج بني عامر إلى حيفا، ومن حيفا عبر مينائها القديم إلى اوروبا أو إلى إحدى البلدان العربية. وأيضا انتشرت عند محيط هذه البوابة بعض المؤسسات التربوية كمدارس الجمعية الاسلامية للذكور والإناث. ولنترك وصف البوابة الشرقية لإبن حيفا عبد اللطيف كنفاني في كتابه «15 – شارع البرج»، يقول:»عرفت البوابة الشرقية على أنها سوق التجار. فمنذ أن بزّت حيفا شقيقتها التوأم عكا في مضمار التجارة، انتقل إليها التجار من كل أرجاء الوطن كما من بعض المدن السورية واللبنانية والمصرية واتخذوا لأنفسهم المحال على جنبات الساحة ومن حواليها في الأسواق الداخلية المجاورة...».

أما «المجتمع التجاري الذي ضمته البوابة الشرقية كان أشبه بالأسرة الواحدة يعمها الوئام وتسودها الألفة. تركيبة عضوية من سدى ولحمة أبناء الوطن على إمتداده. ما كان أدل على جذور تلك التركيبة سوى أسماء العائلات التي تعود بأصولها إلى المدن والقرى الفلسطينية كافة. فكان من بينها الحاج طاهر قرمان وعبد الرؤوف قرمان وحسن الشريف وحبيب الحكيم وميخائيل توما وحسن كنفاني وجاد مبدّى سويدان وحنا سويدان وحسين القزق ويوسف حداد، أضف إليهم عائلات تجارية استوطنت حيفا وتعود بأصولها إلى دمشق وحلب وبيروت وطرابلس وصيدا وصور وغيرها من المدن الشامية واللبنانية، من بينها السراقبي ووردة وكباب والصناديقي واللادقي والميقاتي والحوري وملص والمجدلاني والجارودي وزنتوت والنوري وشبيب وأبي نادر وغيرهم كثيرون. في مجموعهم، وجهاء أفاضل ذوو سمعة زكية ومكانة مرموقة دفعوا بالمدينة الثغر إلى مركز الصدارة وجعلوا منها محورا من محاور الاقتصاد الوطني».

كانت البوابة الشرقية أكثر من مجرد بوابة تفتح مع شروق الشمس وتغلق مع مغيبها، إنها تسمية لمنطقة شهدت حراكًا بشريًا واقتصاديًا وتجاريًا نشطًا للغاية في حيفا حتى العام 1948. بمعنى أنه مع تعاظم شأن حيفا واتساع مساحتها العمرانية وازدياد سكانها من كافة القوميات والأديان والمناطق سواء من فلسطين أو من خارجها، لعبت هذه البوابة دورًا مركزيًا في اقتصاد المدينة والمنطقة.

وانتشرت المحلات التجارية كما أشرنا في المنطقة الشرقية، وأيضًا تواجدت فيها أسواق متفرّعة سواء في داخل الأسوار أو خارجها، ففي داخل الأسوار لعب سوق الجرينة (القريب من جامع النصر الكبير المعروف بـ»الجرينة») دورًا مركزيًا في

ما كان أدل على جذور تلك التركيبة سوى أسماء العائلات التي تعود بأصولها إلى المدن والقرى الفلسطينية كافة. فكان من بينها الحاج طاهر قرمان وعبد الرؤوف قرمان وحسن الشريف وحبيب الحكيم وميخائيل توما وحسن كنفاني وجاد مبدّى سويدان وحنا سويدان وحسين القزق ويوسف حداد،

الحياة التجارية للمدينة، وأيضًا الحسبة التي امتدت على طول الطريق الرابط بين بوابتي المدينة والتي حملت اسم «طريق أميّة» نسبة إلى البيت الأموي الذي حكم الدولة العربية بين 661-749م. صحيح أن البوابات قد أزيلت بعد العام 1875 في أعقاب انتشار السكن والعمران خارج الأسوار، وبتأثير الجالية الالمانية التي أقامت لها مستعمرة (الكولونية الالمانية) في الطرف الغربي من حيفا، حيث ما زالت قائمة إلى يومنا هذا.

بالرغم من إزالة أسوار المدينة تدريجيًا في الفترتين العثمانية والانجليزية وأيضا إزالة البوابات إلا أن الأهالي بقوا أوفياء للمكان بما يحمله من ذكريات تاريخية وانسانية مهمة بالنسبة لهم.

هـل من بوابـــة ثالثـــة؟

وتشير الوثائق وسجلات المحكمة الشرعية في حيفا إلى وجود بوابة ثالثة في البلدة القديمة، تحمل اسم «بوابة الضبيب». ولم نعثر حتى اليوم على سبب التسمية أو معناها وأصلها. وأشارت السجلات إلى أنها كانت تقع على شارع البحر، بمعنى أنها كانت تفتح على الجهة الشمالية من الميناء القديم. وأتوخى أن تكون قريبة من كنيسة اللاتين القائمة إلى يومنا هذا عند الطرف الشمالي لساحة الحناطير. وكان إلى جانب هذه البوابة مُلك لبولص الجدع، وأيضًا لجريس الجدع ولخليل ابن فرنسيس الجدع. والمنطقة التي يفتح عندها باب هذه البوابة تُعرف باسم «محلة الجدع» لكون هذه العائلة امتلكت مساحات من الأراضي فيها إضافة إلى عدد من الدور السكنية والمحلات التجارية. وتعتبر عائلة الجدع من العائلات العريقة في حيفا، ولعب عدد من أبنائها دورا مركزيا في بناء المدينة، وفي النشاطات الاجتماعية والوطنية والقومية، إذ أن عدد لا يستهان به من ابناء هذه العائلة كان عضوا في الحزب القومي السوري الذي اسسه أنطوان سعادة، وكانت حيفا أحد المراكز الهامة لهذا الحزب.

مـــا بقـــي من بـوابـــات المـــدينة

للأسف الشديد لم يبق من بوابات المدينة إلا ذكرها وذاكرتها. كما أنه لم يبق منها سوى بعض الكنائس والمساجد ودور قليلة منتشرة في حيز المدينة داخل الأسوار. لقد فعلت آلة الدمار الصهيونية فعلها في المدينة القديمة، إذ قامت بلدية آبا حوشي بأوامر من حكومة بن غوريون بهدم معظم معالمها وتسويتها بالأرض كجزء من مخطط طمس المعالم العربية، وتغيير شكل المكان ووظائفه، والحيلولة دون عودة أصحاب المدينة الأصليين إلى بيوتهم وأملاكهم. وبالرغم من كل هذا تبقى مدينتنا القديمة والحديثة مثار اهتمام بالغ من طرفنا، ودافع نحو التعرف الأعمق على تاريخها ودورها الحضاري عبر العصور والزمن.

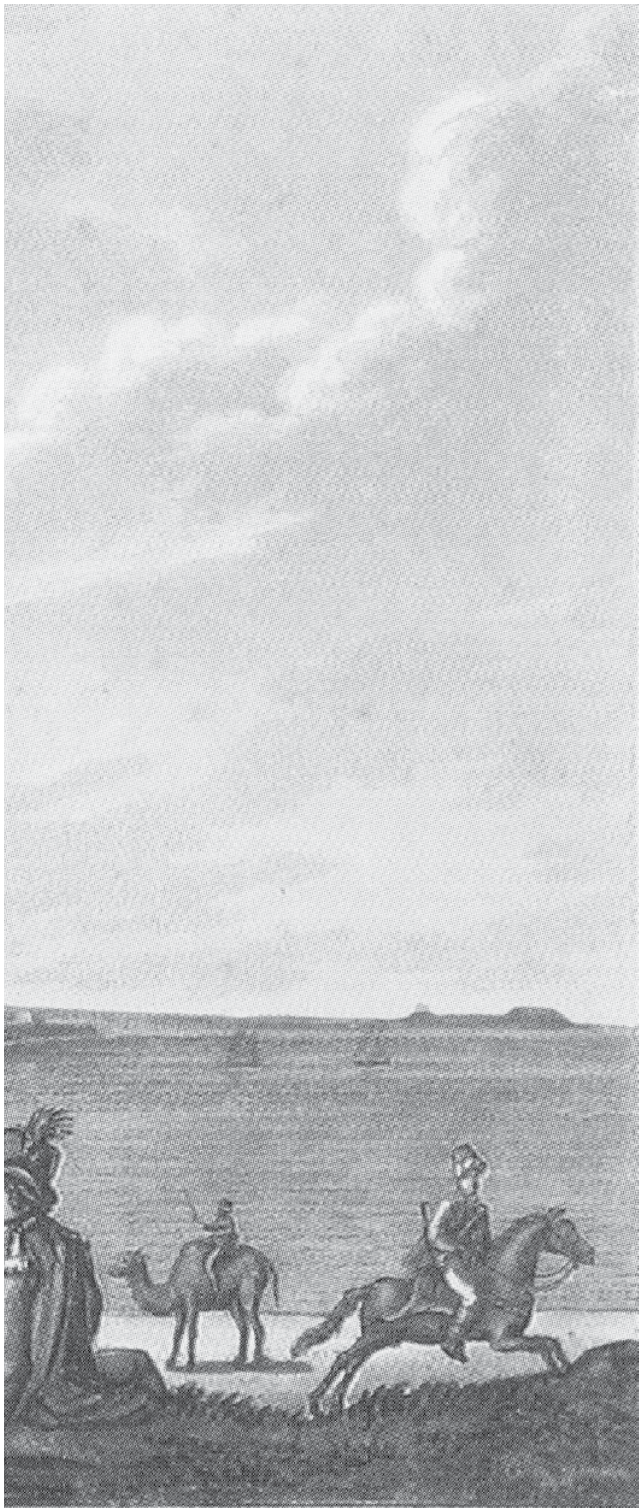

بوّابات المدينة

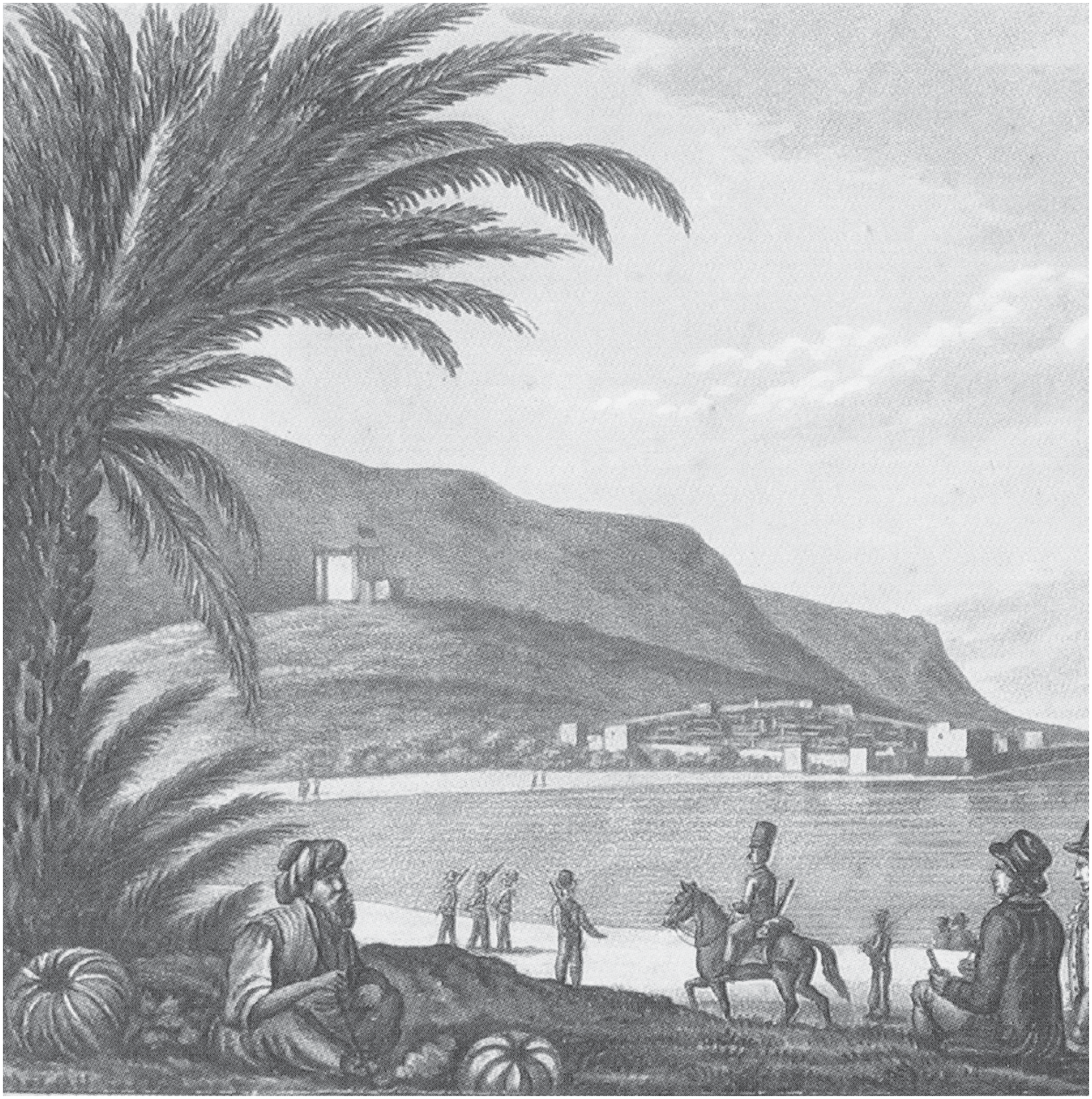

الى الأسفل: صورة لاحدى بوابات حيفا تعود الى اوائل القرن العشرين.
مصدر الصورة: ارشيف د. جوني منصور

لم يبق من بوابات المدينة إلا ذكرها وذاكرتها. كما أنه لم يبق منها سوى بعض الكنائس والمساجد ودور قليلة منتشرة في حيز المدينة داخل الأسوار.